

# سارتر أوْمنتِ الكلمات !

بقلم كلود روي

هو واحدا من أولئك النافخين في البوق الذي لا يتنهون من النفخ في بوقهم لإعلان ساعة « اليقظة » أو ساعة « الأشمزاز ». فان النص الاول الذي نشره سارتر، وهو في الثامنة عشرة، في « المجلة التي لا عنوان لها » والتي أسسها مع « نيزان » في الصف الأعلى الثاني، بعنوان « ملك المريض » يروي لنا قصة كاتب شديد التفاؤل وشديد الخوف من ان يصاب بالمدى في غرامياه مع امرأة مسالوة، الى حد ان « يتزوج امرأة الزاسية، شقراء، متوردة، بليدة ومكتملة الصحة . وقد كف عن الكتابة، ومنح وهو في الخامسة والخمسين وسام جوقة الشرف الذي هو شهادة للبورجوازية غير مشكوك فيها ». وهكذا نرى ان سارتر يهرب، وهو ما زال في الثامنة عشرة، من السعادة ومن الوان التكريم . وفي السادسة والعشرين، بعد ان كتب رواية بعنوان « هزيمة » لم يجد لها ناشرا، نشر مقاله الثاني في « بيفور »، وهو مقطع عن كتاب رفضه الجميع واضاعه سارتر وهو بعنوان « خرافة الحقيقة » .

ولم يجد الكاتب في هذا الكتاب أسلوبه، فاخذ أسلوب « الان » ولكنه كان يمتلك منذ ذلك الحين نواة جميع افكاره وهذا الفصيح المليء بالطيبة الذي يزهده الناس بان يصدقوا بسرعة وان يؤملوا ببلادة . وهذه الأوراق الست عشرة شبيهة بعرض لنظرية سوف يعقها سارتر طوال اربعة وثلاثين عاما . ويجد القارئ فيها اصل بسيكولوجيته عن التخيل ( « ان لافكار الانسان فعلا سحريا . . » ) واصل مفهومه للطبيعة ( « ان الطبيعة لا تقول نسم ولا تقسول لا » ) وللطبيعة الانسان وحرية : ( « اني حر في ان افكر بما اريد » ) وللحاده ( « ان الخلود مفروغ منه ، ما دام خجل الانسان يمنعه من ان يرى بوضوح : فهو يعتقد انه يكتشف فقط ما يخترعه اختراعا » ) . وكذلك نجد فيه ، عبر كلمات قليلة ، بدء فلسفة تنص على ان الوجود يسبق الجوهر : ( « ان الحقيقة لا تولد اولا » ) وبدء النزعة الماركسية ( « ان الحقيقة تنطلق من التجارة : وقد رافقت الى السوق الحاجات الاولى المنوعة » ) وعلم الكائنات السارترية ( « ها هم اولاء البشر المجردون ، وحيدين مع اجسامهم ، ومحتقرين اجسامهم » ) وسياسته الديموقراطية ( « ان كل انسان يستطيع ان يحل محل انسان آخر » ) وحتى الكفاح ضد الاستعمار : ( « تقولون ان الافريقيين يعانون من الاستعمار ؟ ولكن عجباً ، لو كان هذا صحيحا لتكلموا ، ولناروا . والواقع ان بوسعكم ان تروهم في كل لحظة جادين هادئين . انهم اشد عقوقا من ان يتبادلوا علنا النهائي بحمايتنا ، ولكنهم لا يقولون شيئا ، مما يجعل الامرين سواء » ) في عام ١٩٢٣ رفض سارتر وسام « جوقة الشرف » ، وفي عام ١٩٣١ رفض الخلود والقيم الخالدة ، ورفض ان يرى الحياة بلسون زاهر ، وان يرى الانسان هادئا وان يقبل بشرا يضطهدهم البشر . ولم يكن لميزرنا الصبية الديموقراطية القابلة للموت والتي كانت تخرج كاملة السلاح من ذلك الرأس غير الجميل ، ولكن المصنوع بانقان - لم يكن لها مما تعد به اشباهها الا ما كان تشرشل يعد به الانكليز عام ٤٠ : « من العرق والدم والدموع » .

كانت له طريقة خاصة في ملء قده بالخير ، وفي شد جزاهه ، وفي ان يقول : « ونحن، الفروج المساكين . . . » (١) : كان الجميع في الفرقة يعرفون ان الجندي جان بول سارتر انما كان اميرا ، مجندا باسم مستعار في « الفرقة » . ولكنهم كانوا يحترمون تنكره ، فكانوا يدعونه في سلام ، ويتكونه دائما في الصف الاخير عند المنادة على الاسماء او الدعوة للاستعراض ، وكان هو دائما اول من ياخذ النوبة لدى تقيب رفيق واول من يعطي اناءه لجاره . ولكن حدث يوما ان ارادوا اخراجه من الصفوف ، وان ينصبوه، هكذا بلا تمهيد ، مارشالا ، مع وسام ضخيم ورتاب من يحمل خمسة نجوم، وسرد لجميع سنوات الخدمة واستعراض عسكري عند « قوس النصر » لمنحه قبضته . ولينتم رأيتم كيف افرقع ، شبيها بحمار وحشي ، ولم يقف الا لحظة قصيرة ريثما يقول لهم بكل لطف انه لم يكن يريد ان يكون مارشالا ، لا في الادب ولا في اي شيء اخر ، وانما يريد ان يكون مجرد انسان « انسان مصنوع من جميع الناس ، وهو يسواهم جميعا ، ويسواه اي واحد منهم » (٢) .

ومهما كان رفض سارتر لجائزة نوبل مدعوما باسباب معقولة ولطف في الاعتذار هو غاية الرقة ، فان هذا الرفض يذكرنا ببديهية اساسية : ان ثمن الكلمة لدى كاتب ، حتى ولو كان يكسب حياته من قلمه ، لا يمكن قط ان يحسب بكونونات نوبل ، او فرنكات غونكور ، او دولارات بوليتزر ، او روبلات لنين . ان قيمة الكاتب الحقيقية هي التي يمكن اعطاؤه اياها حين تكون بعد في الوحل ، وحين يساعدنا بالكلمات - وهي كل ما يستطيع ان يعطي - على الخروج منه . ان هناك دائما لحظة يتساءل فيها مالرو ، في فاعات « متحفه » الخيالي ، اية لوحة تستطيع ان تصمد في جبهة قتال ، ويقرر فيها سارتر ان « الفتيان لا وزن له تجاه طفل يموت » . ان الجائزة الادبية الوحيدة التي اجدها غير قابلة حقا للنقاش هي التي اكتشفها صديق منفي ، على غير علم منه ، مع اجسد رفاقه ، صباح كل يوم في « بوشانوالد » : لقد كان الرجلان ينشندان الشعر في البرد . وكان في تلك القصائد ما يحفظانه عن ظهر قلب ، ولكنها كانت تبدو لهما مضحكة ، فيدعانها تسقط . وكانت ثمة قصائد تصمد . وذلك هو ثمن الكلمات .

واذن ! فقد كان سارتر على حق في الا يقبل جائزة نوبل ، ومع ذلك فقد كان سادة الاكاديمية السويدية على حق كذلك في ان يريدوا منحه اياها . لان جائزة نوبل الوحيدة التي تحمل قيمة ، تلك التي يمنحها انسان يعاني صعوبة كونه انسانا الى من يتفقه من ضيق او قلق ، او من اغراء جبن ، او من وسادة بنخ - ان هذه الجائزة قد منحت لسارتر ملايين المرات من قبل الوف البشر في العالم .

وصحيح ان ما يصنع اكبر قدر من الخير ، ليس هو الكلمات الطيبة . وليس سارتر اخصائي الكلمة الطيبة ، ولا نموذج الكاتب الذي يضع يده على كتفك وهو يقول في شغف : « ان الامور ستسوى ، يا عزيزي » وليس هو كذلك من يريك ان السماء زرقاء ، وان الشمس تسطع ، وليس

(١) « كان اليسار قد دخل هذا الاحتضار الذي لا يلتوي ، وكنا نحن الفروج المساكين نجده في صحة جيدة . » ( اوضاع ، الجزء الرابع ) .  
(٢) العبارة الاخيرة في سيرته الذاتية : « الكلمات » .

لقد عاد كبير ابنائني من اللبسيه وهو يقول :  
- هل تعلم اننا قررنا ان سارتر هو اجدر الناس بالاعجاب ؟  
كان سارتر يطلب اولا الا يؤمن الناس بابا نوبل . فهو ليس اذن

بابا نويل ، ولكنه من يضع البشر فيه اعظم ثقتهم ، انه سقراطنا السذي لا يقطع السم كلامه ، لانه رضعه من ندي امه « الطيبة » ، فاصبح منذ ذلك الحين معتادا على السم ، وعود الناس عليه . وسعداء هم الشبان الذين سيشربون في الصباح هذه القهوة السوداء المرة ، القوية ، التي تبت الشجاعة والجرأة : « الجدار » ، « الفثيان » ، « الوجود والعدم » ، « جلسة سرية » ، « القديس جينييه » ، « الكلمات » .

لقد انقضى ربع قرن وآباء الحقائق الموضوعية ، المحترمون الهادنون يتهمون سارتر ، في غير هوادة ، بانه مسمم : يتهمه اليسوعيون بانسه ملحد ، واتباع « كانابا » بانه جرذ دبق ، وامثال سيسيل سان - لوران بانه جاد ، وحواريو جاك هودار بانه متناقض ، ويتهمه اليسار بانه يميني ، واليمينيون بانه يساري . انه دائما في موقف خطر لان له ذهنا مستقيما . والواقع ان سارتر قد عاش وضع الحي كما صوره : وضع كائن بلا قيمة لا يستطيع ان يعيش بلا قيم ، وضع مهزلة يجب ان تمثل تمثيلا جيدا جدا الى حدان تبلغ اخرها الصدق والاخلاص ، وضع عاطفة مهوسية ( ولكن غير مجدية ) تنطلب المطلق ( ولكنها تعرفه نسبيا ) . ولقد وسع بعقيرته فثومولوجية عالم قليل الاغراء بالالزام ، مضيئا الى ذلك بان على المرء ان يلتزم ، وانتهى الى القول بان الامر سواء ، فلسفيا ، « ان يسكر المرء متوحدا او ان يقود الشعوب » ، وارتدى في الوقت نفسه في المعركة من اجل الشعوب ، وشرح في دقة ضارية لماذا « الحب في جوهره خدعة ورد الى اللانهاية » ولكن من اجله هو ، استطاعت امرأة ان تكتب اجمل كلمات الحب العصرية : « كنت اعرف ان اية مصيبة لن تأتيني ابدا منه ، الا ان يموت قلبي . »

ولم يكف عن ان يشرح لنا اننا كنا معتقلين متشبثين بالمستحيل ، وانه لم يكن ثمة مخرج نخناره ، وانه ينبغي اذن ان نخترع مخرجا اخر . وحين كان يوكد نفسه ماركسيا ولكنه كان يهدم بلا هوادة نظرية « الانعكاس » ، وحين كان يقول ويثبت للشيوعيين انه كان معهم ، ولكنه يمتنع عن التردد معهم بانه لم يكن في الاتحاد السوفياتي معسكرات اعتقال ، وحين يقول ، فيما هو يمضي في تأليف كتب في عالم متسمم بان « الادب ، كالاخلاق ، في حاجة الى ان يكون عالما » ، فانه لا يدلل بان فكره فكر متناقض ، لان كل اناره كفيلسوف وكتاب تقوم على بديهية : تناقض الفكر الذي هو ما ليس هو ، وليس هو ما هو .

وسارتر الذي يملك ذكاء صابرا ونكتة حية ، هو دائما اول من يضحك حين اذكره بالتناقضات الظاهرة في علاقتنا الشخصية : حين اسمعه ، عام ١٩٤٢ ، في اثناء احدى المناقشات ، ينصح بعدم مزج ادب النضال بالصراع المسلح ، وينصح الكتاب المقاومين بالا يعتبروا انفسهم « جنودا صفارا » بحجة انهم يكتبون « مقالات ملتزمة » ثم يقترح علينا يوم ٢٠ اب ١٩٤٤ ، بان نجند في ثورة باريس « ميليشيا وطنية مسن الكتاب » ( وقد اعترضت بان كل كاتب يود ان يكون في هذه الميليشيا كولونيلا على الاقل ) . وحين صاح بي ، ليل ٨ اب ١٩٥٦ ، بعد عشاء تناولناه في « دلف » وناقشنا طوال السهرة قضية استحالة ان يكون احدا شيوعيا واستحالة الا يكون شيوعيا ، صاح بي من تحت شجر الزيتون : « حاول خصوصا الا تجعلهم يظردونا ! » وحين تلقن لي صباح ٥ تشرين الثاني التالي ليطعنني على البيان بشأن تدخل الروس فسي المجر ويطلب مني ان اوقع البيان ، فوقفته ، ثم صرح بعد ثلاثة ايام انه لن يجلس بعد اليوم ابدا ، طيلة حياته ، على طاولة واحدة مع كتاب سوفياتي ، ثم اجده بعد عامين مع اهرنورغ ، ثم يدعوني منذ بضعة اشهر الى قضاء السهرة مع افتشونكو وفوزنسنسكي .

لا شك في ان التناقض هو غالبا حركة الحقيقة الاكثر فعالية الى الحقيقة ، وان الجبل الصلب هو غالبا اللرب الوحيد الذي يسمح بالانتقال من هوة الى هوة . وينبغي الا نترقب فقط بان سارتر قيد اضطلع في شجاعة بتناقض جنسنا وتناقض زمننا ، بل اود كذلك ان امدحه مدحا سلبيا ، ولكنه صادق : فهو واحد من اندر الرجال الذين لم ارمهم قط يقولون او يكتبون حماقات او خباثت الا بدافع من غضب . وليس قط بحساب وتدبير . وهو حين يظن ان ما يحبه قد اهدى ، سواء كان فكرة ام كانا ام مبداء ، فهو جدير بان يعمد الى الطعن بالخنجر ، وان يصيح متوحشا حقيقيا . اما حين يريد ان يكون خبيثا ، محتالا ، سياسيا كبيرا ، فانما يكون كذلك دائما بدافع من سخاء ، وباكبر قدر من الخرق والارتباك : قارنوا مثلا السطور الخمسة عشر التي رثى بها موريس توريز ، والصفحات الخمس عشرة التي كتبها عن موت تولياني . انه لصحيح ما قاله في واحدة من الصيغ المسطحة النادرة ، المسطحة كما تكون البديهيات : « ان وظيفة الكاتب هي ان يسمي القطة قطة » .

لقد احببت ان تكون جائزة نوبل هذه المرفوضة ، والتي كانوا سيؤاخذونه لو قبلها ، والتي يؤاخذونه كذلك لانه رفضها ، قد وضعت سارتر مرة اخرى في موقف الخطر . واني احب روح النكتة السارترية التي تهمس في اذان منفذي وصية مخترع الديناميت بفكرة مكافأة الكتاب العالمي الوحيد الذي يمنع الناس من الياس من الاشتراكية ، فيما هو يتهم ، وفق عبارته الشهيرة « بانه يشبط بيلانكور » . لم يكن ثمة مخرج لسارتر : فاخترع مخرجا .

لقد كتب في آخر « الكلمات » : « اننا جميعا متشابهون في مهنتنا : كلنا محكومون بالاشغال الشاقة ، وكلنا موشومون » . وقد علمنا ايضا اننا كلنا متشابهون في مهنتنا كبشر ، واننا لسنا وحيدين في كون كل منا وحيدا ، وان علينا ان نكون من اجل جميع الاخرين . ويقول سارتر انه اختار دائما ان ينسب لنفسه الخطأ ، وهو يصف نفسه بانه ابن زني ، وانه خائن ، وانه جرذ دبق . « لانني لم احب نفسي بما فيه الكفاية ، فرددت الى امام ، وكانت النتيجة اني ازددت كرها لنفسي » . هذا ممكن . ولكن النتيجة هي اني اعتقد ان ثمة كثيرين من الشبان ، على غرار ابني ، يعتقدون ان سارتر « هو اجدر الناس بالاعجاب » . وهو في نظرنا نحن اندر الرجال العظما ، وهو بلا شك اعظم العظما : وليس هو معلما ، ولا ساحرا ، ولا صديقا ، ولا رفيقا ، وانما هو بين الكتاب الاحياء ذلك الذي نود لو نستطيع ان نعيد اختراع الكلمة الاكثر ازعاجا في اللغة الفرنسية ، وان نقول : انه اخ .

صدر حديثا :

## لاجر في بيروت .

بقلم

غادة السمان

المجموعة الثانية لقصاصة فرضت نفسها بقوة منذ قصتها الاولى

دار الاداب

الثلث ٢٥ فرشا لبنانيا

كلود روي

ترجمة « الاداب »